الدروس التربوية

من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

"سورة الحج : ٣١ "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه، كما بلّغنا هذه العشر، أن يجعلنا ممن صام نهارها إيمانًا واحتسابًا، وقام ليلها إيمانًا واحتسابًا، وبلغ من قيامه قبول رب العالمين، ووُفِّق لقيام ليلة القدر، اللهم آمين.

نشرع اليوم، في دراسة سورة الحج وإكمال الكلام عن "الأمثال القرآنية" وسورة الحج من أعاجيب السور، فيها من المعاني المتصلة بالتعظيم ما يعجز الإنسان عن بيانه، ومهما تلا هذه السورة، ومهما أعاد فيها وزاد، ودرسها وتدارسها، فلا زالت أسرارها العظيمة لا يعلمها إلا الله، لكن غاية المجتهد أن يبذل جهده فيما يتيسر له. وسورة الحج هي السورة الوحيدة التي باسم ركن من أركان الإسلام، وهي تحمل مقصود الحج، بل مقصود الإسلام. الحج ركن الإسلام الأعظم، وسورة الحج تحمل المقصود الأعظم من الحج ومن الإسلام، وهو تعظيم رب العالمين والاستسلام له؛ ولذلك حين

نلاحظ الكلمات المكررة والبارزة في السورة سنجد كلمة "التعظيم" تكررت مرتين، (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ)، (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ).

نسمع هذه الكلمات مكررة في السورة إشارة إلى التعظيم الذي هو مقصود الحج ومقصود الإسلام والحج هو ركن الإسلام الأعظم. ثم نلحظ سويًا، كما في بداية السورة، أن هذه السورة تنادي الناس، وتنبههم على وجوب التعظيم لله، وتنبههم على أن الأدلة الواضحة التي تدل على أن الاستسلام لله وتعظيم الله، هو الحق، وأن صرف التعظيم لغير الله هذا باطل محض. فمسألة التعظيم، وما يتصل بها، غاية في الوضوح في هذه السورة، ونشير إلى أمر غاية في الأهمية متصل بالتعظيم. لكن الآن عرفنا أن رب العالمين لما أوجب على الخلق أن يستسلموا له -سبحانه وتعالى- ويدينوا بدين الإسلام، أظهر لهم الدلائل الواضحة على أن هذا هو الحق، وأن هذا هو الصراط المستقيم؛ لذلك من الكلمات التي تكررت في السورة أيضًا كلمة "الحق".

لما كانت هذه السورة مليئة بالأدلة الدالة على وجوب الاستسلام لله وأنه حق له، ابتدأت بنداء الناس جميعًا:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ) كما في الآية الأولى، سنلحظ أن نداء الناس أيضًا تكرر، كلمة "الناس" تكررت في السورة خمسة عشر مرة، وتكرر نداء الناس إلى أن انتهت بأن نادت المؤمنون.

الكلام الذي مضى باختصار؛ سورة الحج سورة تنبه الناس على وجوب التعظيم وأنه حق لله، على وجوب الاستسلام لله، على مقتضيات هذا الاستسلام، على أدلة واضحة تدل على أن الاستسلام لله وتعظيم الله حق.

وبدأت هذه السورة بخطاب الناس كافة، وتكرر فيها خطاب الناس كافة، إلى أن يأتي آخر السورة، بعدما يفرغ -سبحانه وتعالى- من بيان الأدلة العظيمة على استحقاقه للتعظيم والاستسلام، ينتهي السياق بخطاب الناس بمثَل، بعدما يبين كل الأدلة يضرب للناس مثلًا، ثم يوجه خطابه -سبحانه وتعالى- للذين آمنوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا).

الآن نتنقل وننظر إلى خطابات الله للناس عمومًا، إلى أن نصل إلى آخر السورة ونصل إلى المثل ونصل إلى خطاب الذين آمنوا، نبدأ بقراءة الآية الأولى التي فيها خطاب للناس جميعًا، وهي أول آية في السورة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

الخطاب واضح جدًا للناس جميعًا، أمر بتقوى الله التي تتمثل في تعظيمه والاستسلام له، والاستعداد للقائه، ببيان أن اللقاء حتمي لا مناقشة فيه، وعظيم وهائل، كما تأتي الآيات بعدها، لكن سنترك الكلام عن هول هذا اللقاء، وننتقل للآية الخامسة التي فيها خطاب ثانٍ للناس:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ).

هذه الآية أيضًا فيها خطاب لعموم الناس بعد أن أنذرهم زلزلة الساعة، أخبرنا -عزَّ وجلَّ- أن هناك من يجادل في الله بغير علم، فأعاد الله خطابهم وبيّن لهم

الأدلة الواضحة التي تدل على إمكان بعثهم وأنهم حتمًا يعودون إلى الله.

إذًا هذا هو الخطاب الثاني: (إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ) انظروا إلى هذه الأدلة وتفكروا فيها، وخاطبهم رب العالمين بهذه الأدلة، بهذا نكون قد سمعنا النداء الثاني، نأتي إلى النداء الثالث في الآية (49):

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

هذه الآية غاية في الوضوح في كون أن رب العالمين بعدما خاطب الناس جميعًا بالأمر بالتقوى، والاستعداد للقائه، والتخويف من هذا اللقاء، وذكر الأدلة الدالة على أن هذا اللقاء سيكون وأن هذه الحياة ليست عبثًا، أمر الله، نبيه في هذه الآية بأن يخاطب الناس بأنه أرسل إليهم لهدايتهم. (إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بمعنى إني لست بربكم، ولا بيدي هدايتكم، ولا عليَّ عقابكم يوم القيامة، ولكني أرشدكم إلى الصراط المستقيم، وهذا المعنى لأجل أن يتصور الإنسان أن الله ما ترك الخلق سدى، ولا جعل هؤلاء الخلق بعضهم مسؤول عن بعض، حتى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ليس مسؤولًا عن الخلق، بل هو مبين لما ينفع الخلق وما يضرهم،

ليجتلب الخلق النفع، ويتجنبوا الضر، هذه هي وظيفة الرسول، فهل تركككم ربكم هملًا؟ لا ما تركنا هملًا -سبحانه وتعالى- بل أمرنا بتقواه، وبيّن خطورة اللقاء، وبيّن الأدلة على أن هذا اللقاء واقع، وأرسل الرسول وأمره أن يخاطب الناس، خطابًا يجعلهم يعرفون كيف ينجون من عذاب الله، وكيف يعيشون في هذه الحياة الدنيا كما ينبغي؟ نقرأ الآيات من (49) إلى (52)

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

بهذا يكون الخطاب واضح؛ الرسول (نَذِيرٌ مُّبِينٌ)، والمستجيبون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبشرهم رب العالمين بالمغفرة والرزق الكريم. يقابل هؤلاء الممتنعون، المعترضون. هؤلاء يسعون -السعي المشي الشديد-، ويجدون حريصون على أن يطعنوا في الدلالات، وحريصون على أن يضلوا عباد الله ويصدوهم عن الطريق. تصور، بدلًا من أن يحصل منهم استسلام، تحصل منهم مسابقة لطلب غلبة الله، هم يتصورون أنهم يغالبون رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لأن المعاجز هو: المسابق الطالب عجز من

يسايره. فهم بدلًا من أن يستسلموا لله ويصدقوا بالرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ويسيروا سيره، يحاولون أن يغالبوا بأعمالهم رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهم لا يشعرون أنهم يحاولون أن يغالبوا الله، وقد ظنوا أنهم نالوا مرادهم في الدنيا، لما ضل هؤلاء وهؤلاء ولم يعلموا ما لهم من سوء العاقبة؛ لذلك رب العالمين يقول: (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).

إذًا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ)، (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بعدما ظهر هذا الأمر بوضوح، وأن الناس يفترقون بعد نذارة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، أتى النداء الأخير للناس في الآية (73):

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

هذا النداء جاء بعد النداءات التي أتت في السورة، وبعد الحجج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها

السورة، مما يقنع الإنسان الصادق بأن إله الناس واحد، وأن ما يعبد من دونه باطل. بعد كل هذه المواعظ والإنذارات أتى هنا المثل، ضرب الله مثلًا جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها، فكان هذا المثل الثاني في السورة، وسنتعرض للمثل الأول، فهذه كلها خطابات للناس (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ)، (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) بعد كل هذه الخطابات وبعدما أظهر -سبحانه وتعالى- الحق والحجج، خاطب أهل الإيمان، ترك خطاب الناس والآن الخطاب لمن يصلح له الخطاب فجاء النداء للذين آمنوا في الآية (77):

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

افتتح الله -عزَّ وجلَّ- هذه السورة بخطاب الناس عمومًا وأهل الباطل خصوصًا ومعظم السورة، خاطب الله -عزَّ وجلَّ- هؤلاء، خاطبهم بـ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) أربع مرت، فلما استوفت السورة الحجج والقوارع، وبينت مساوئ الأعمال ومساوئ التفكير، وخطورة عدم

الاستسلام لرب العالمين، خُتمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم ويرفع شأنهم، ومن هنا تُختم سورة الحج وتُفتتح سورة المؤمنون. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وتأتي سورة المؤمنون: (قَدْ أَفْلَحَ المؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

فهذا تصور عام لما في السورة من تنبيه للناس على وجوب تعظيم رب العالمين. نمر الآن على ما في السورة من دلائل عظيمة على عظمة الله، خاصة في صفة قهره وسلطانه على خلقه، هذه الصفة التي يغفل كثير من الناس عن النظر إلى آثارها حوله، وإلى التفكر فيما أرشد إليه القرآن مما يدل على عظمة الله وقهره وسلطانه. وهذا هو الحق الذي على الناس أن يتأملوا فيه، فكيف يستسلمون لمن ليس له سلطان؟ كيف يستسلمون للفقراء الضعفاء، كيف يكون هذا حالهم؟ لذلك مرتين في هذه السورة تكررت كلمة "الحق"، نذكر أولًا تكرر كلمة "الحق"، ثم نذكر ما ورد في هذه السورة من صفات العظمة لله، وخاصة ما ظهر فيها من قهره وسلطانه لعبيده. نقرأ أولًا الآية السادسة في سورة الحج:

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الآية واضحة، إشارة إلى أنه -سبحانه وتعالى- هو الحق وهو -سبحانه وتعالى- المستحق للتعظيم والانكسار والذّل والتعلق والرجاء به. هذا المعنى يتكرر في الآية (62) من نفس السورة:

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

هذه المرة الثانية التي يتكرر فيها قوله: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) الأولى أتى معها الدليل أنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، والثانية أتى الخبر عما يقابل الحق (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) هذا المعنى العظيم، الله هو الحق، الثابت الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء. كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، وعده حق ولقاؤه حق ودينه حق والجنة والنار حق وعبادته هي الحق النافع الباقي على الدوام، التقرب إليه هو

الحق الذي يبقى إلى يوم لقائه، و(مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ) أي أحد يدعى من دونه -عزَّ وجلَّ- باطل في نفسه، التعلق به باطل، عبادته باطلة، رجاؤه باطل، الانشغال به باطل؛ لأنه تعلق بأمر مضمحل فانٍ، فتبطل تبعًا لذلك الغايات والمقصود.

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) انظر إلى معاني القهر والسلطان، العلي في ذاته، فهو عالٍ على جميع المخلوقات، مستوٍ على عرشه -سبحانه وتعالى- وهو عليّ في قدره فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه -سبحانه وتعالى- أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، ومن كبريائه أن كرسيّه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإرادته، وحقيقة الكبرياء شأن لا يمكن لأحد أن يدركه، لا يمكن لأحد أن يعرف حقيقة كبرياء رب العالمين، لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإنما مما أخبرنا الله به عن نفسه نعرف أن له كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، ونعرف أن له من الصفات أجلها

وأكملها، ومن كبريائه -سبحانه وتعالى- أن العبادات الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها وهي حق، إنما مقصود هذه العبادات تعظيمه وتكبيره وإجلاله وإكرامه لأنه الحق؛ لأنه المستحق لهذا الإكرام، مستحق لهذا الإجلال، مستحق لهذا التعظيم وغيره باطل؛ لهذا نلاحظ أن التكبير هو شعار العبادات الكبار؛ في الصلاة وعند إتمام رمضان، والصيام، نسأل الله أن يبلغنا التمام ويقبلنا، وفي الحج، فكبرياؤه -سبحانه وتعالى- شأن عظيم لا يعلمه إلا هو. لكن العباد يتعرفون على ربهم عن طريق ما أخبر به -سبحانه وتعالى- عن نفسه ويزيدون هذا الأمر ويفكرون فيه وتكون نتيجته: أن تصدر منهم العبادات وهم معتقدين بعظمة رب العالمين، وهذا هو مقصود السورة. فسنمر على شيء مما أخبرت به السورة مما يدل على صفة العلو والكبرياء له، كما ذكرنا (هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) ، عالٍ في ذاته وفي قدره وفي قهره، كبير -سبحانه وتعالى- في أسمائه وفي صفاته ونرى آثار عظمته وكبريائه وقهره لعباده. نمر على ما يتيسر لنا، نبدأ من أول السورة ونسمع في خاتمة الآية السابعة:

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ)

انظر إلى ما يدل على عظمته وسلطانه -سبحانه وتعالى- الكون سيسير كما قدر الله، و(السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا) ولا يستطيع أحد أن يمنعها، كما أنه لا يستطيع أحد أن يمنع الشمس من الظهور، ولا من الغروب، ولا يستطيع أن يزيد في أيامه يومًا، بل ولا ساعة، بل ولا ثانية، لا يستطيع أن يزيد من عمره أبدًا، بل ولا يستطيع أن ينقص من عمره. فكم من أناس حاولوا أن يقتلوا أنفسهم، ويتخلصوا من أنفسهم لكنهم ما استطاعوا أن يفعلوا ما يريدون! فالإنسان لا يستطيع أن يزيد ولا ينقص من حياته، الساعة آتية لا ريب فيها، كل شيء سائر بتدبيره وقهره وسلطانه، وهو حكيم لا يخلف ميعاده، (وَأَنَّ اللَّهَ)، وهو -سبحانه وتعالى- صاحب الكمال والجلال (يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) هذه الصفة العظيمة الدالة على كمال قدرته، (يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) من الأموات، يبعثهم أحياء إلى موقف القيامة. تصور كيف سيعاد بعث كل من خلق الله، حين ننظر إلى تجمعات الناس يمكن أن يصيبنا شيء من الفزع من كثرة الناس، ومن هول اجتماعهم في أشياء بسيطة

تتصل بالدنيا حتى في الحج مثلًا، يرى الإنسان العدد الكبير ويراه هائلًا، فيكف تتصور أنه سـ(يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ)، من أن خلق الله آدم إلى آخر إنسان، كل هؤلاء سيبعثهم الله، فيا لعظمة الله وقدرته.

هذا المعنى أيضًا الذي يدل على قهره وسلطانه ننظر له في الآية الرابعة عشر من السورة:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

نلاحظ (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)، كن على يقين بهذا الحق المبين، الله المحيط بكل شيء قدرة وعلمًا يفعل ما يريد.

نقرأ الآية السادسة عشر أيضًا:

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ)

لاحظنا (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)، (وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ) ختمة الآيات السابعة عشر بقوله: (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

والثامنة عشر بقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

هذه الآيات المتتالية كلها آيات واضحة الدلالة على علوّه وكبريائه -سبحانه وتعالى- انظر إلى خاتمة الآية (40) أيضًا:

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

أقسم -عزَّ وجلَّ- (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ) ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذا شأن يحتاج إلى تفصيل، لكن المهم أن نعرف قهر الله وسلطانه، إذا نصرت الأمة دين الله باتباع الشرع وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فالله قوي عزيز، سينصر هذه الأمة، نقرأ خاتمة الآية التالية:

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

نفس الدلالة؛ عاقبة الأمور مرجعها إلى حكمه وتقديره، فهو -سبحانه وتعالى- حكم أنه لو نصرنا دينه وشرعه نصرنا، وهو له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العلي الكبير. لو أردنا أن نسترسل في

الأمر سنجد أشياء كثيرة تدلنا على قهر الله وسلطانه، لكن سنخرج عن مقصدنا بهذا.

بعد هذا البيان الواضح لكون هذه السورة فيها الحق، وأن الخلق فيهم من يجادل، كما في بداية السورة، رأسًا كان أو تابعًا، وهناك ضعفاء الإيمان الذين يعبدون الله على حرف، وهناك أقوياء الإيمان الذين وعدوا بأن يدخلهم الله جنات، أصناف الناس هؤلاء كلهم إنما موضوعهم أمر واحد مر علينا سابقًا، وهو المتكرر دائمًا، التوحيد، توحيد الله. كم امتلأ فؤاد الإنسان بمعرفة الرحمن، ومن ثم استقر الحق في قلبه وطرد الباطل، على حسب حال الإنسان في هذا الموضوع تكون سلامته في الدنيا والآخرة، في مقابل أن الذي يترك نفسه يدخل إليه الباطل ويعظم في قلبه أحد غير ربه -سبحانه وتعالى- فهذا عرض نفسه للخطر العظيم. فأتى مثل في السورة يبين هذا الخطر العظيم الذي يمكن أن يتعرض له الإنسان. ننظر للمثل الأول في سورة الحج وهو يبتدئ في الآية (31):

(حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

هذا المثل مقصده أن من دخل إلى قلبه الباطل وتمكن منه والتفت إليه وأشرك مع ربه غيره ومات ولم يتب ولم يعد إلى رب العالمين فقد وقع في هلاك لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال؛ لأنه -سبحانه وتعالى- شبهه بالذي (خَرَّ) سقط من السماء إلى الأرض فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفه، والريح تهوي به فتلقيه (فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) يعني محل بعيد لشدة هبوبها تأخذ أوصاله الممزقة وتذهب به في مكان بعيد، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص، ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة. تصور إنسان كان موجودًا على سفح جبل، وهذا التصور سهل اليوم لأن الناس عرضوا أنفسهم للمهالك، ويصورون أنفسهم وهم ذاهبون للمهالك! فتصور إنسان على سفح جبل عالٍ أو في طائرة عالية، ثم خرّ من السماء إلى الأرض، هل يصل؟ عادة لا يصل إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد، فهذا هلاك محقق لا محيد عنه.

(وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ) سقط من السماء، هذه هي الصورة الحسية، إذا سقط من السماء فلا حل له إلا واحد من حالتين؛ (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) فيصبح

ممزقًا في حواصلها أو (تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ) ، تأخذه الريح وتذهب به في مكان سحيق، فهذا إشارة إلى الهلاك المحض، يعني لا توجد نجاة أبدًا.

مثله حال الذي وقع في الشرك ومات عليه، ولم يتب منه قبل حضور الموت، نحن نعلم أن التوبة تجبّ ما قبلها، من تاب من شركه قبل حضور الموت فإن الله يغفره له لأن الإسلام يجب ما قبله. هذا أمر نحن متأكدون منه، وهو ليس موضوعنا، موضوعنا هو من مات على هذا. تصور الإنسان ماذا سيكون حاله في حياته؟ صورة المشرك بالله، وحين نقول "مشرك بالله" لا ينتقل ذهنك إلى الصورة النمطية التي وصلت للناس عن طريق الإعلام، أو غيره، الصورة النمطية للشرك إنما هي عكوف على أصنام وأحجار، بل الشرك الأكبر المخرج عن الملة صوره متعددة، فها نحن نرى العالم الإسلامي يعكف أهله على قبور يعظمونها ويطلبونها من دون الله، وأتت صور كثيرة اليوم واضح فيها أن الخلق ينتزعون صفات الله ويعطونها لغير الله. وهذا باب عظيم يجب على أهل الإيمان أن يعتنوا به، يعتنوا بسلامة دينهم، يعتنوا بسلامة طريقهم الذي هم راحلون فيه.

الشاهد سنرى صورة حال المشرك، فهمنا الصورة الحسية، أنه شخص كان في السماء، سقط، اختطفته الطير، تفرق مزعًا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في مكان بعيد.

يقابلها أن الله شبه الإيمان في علوه بالسماء، وأن الذي ترك الإيمان وأشرك بالله أصبح مثل الساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره مثل الطير المتخطفة لبدن الإنسان الساقط، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة شبهه بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة. معنى ذلك أن المشرك حين ترك الإيمان الفطري وكان في مُكنتِه أن يستفيد منه وأن يبني عليه الإيمان بالأدلة، كان بالإيمان الفطري في السماء، لما ما انتفع بالإيمان الفطري، كان كمن سقط فتتوزعه أنواع المهالك.

فتصور هذا المعنى، تصور كيف أن الإنسان المؤمن محفوظ في السماء، ونحن لنا علاقة عظيمة بالسماء، لما سمعنا المثل في الكلمة الطيبة (أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) وهنا نسمع (فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ)، كان في السماء في مكان عال بما معه من إيمان، فترك الإيمان، فتلف تلفًا ما وراءه حل. وتصور

أن عندنا حالتين: طير (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).

يمكن أن نقول إن أهل الكفر وأهل النفاق، وكل من دخل إلى قلبه الشك فتركه يعيث في قلبه، وما طلب طهارة القلب، كأن الآية تشير إلى أن هؤلاء قسمان:

قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبَّه بمن اختطفته الطير، بمعنى أنه كل يوم عنده فكرة، ليس طائر واحد أخذه، إنما ممزّع. الإنسان حين يسقط وتأتي الطيور تأخذه يصبح ممزعًا، كذلك الإنسان المذبذب متى لاح له طيف من أفكار اتبعه وترك ما كان عليه! إذا قالوا له: "طاقة" ذهب مع الطاقة! لو قالوا له: "يوغا" ذهب معها! أي اسم يعطونه إياه، أي فكرة تلوح تخطف من قلبه شيئًا، وكان الواجب أن يصدق في طلب الصراط المستقيم وأن يسأل الله طهارة القلب، لكنه ترك نفسه مذبذبًا متى ما لاح له خيال فكرة اتبعها وترك ما كان عليه.

قسم آخر مصمم على هذا النوع مستقر فيه، هذا يشبه الذي ألقته الريح في وادٍ سحيق.

في كلا الحالتين هؤلاء قد جنوا على أنفسهم لأنهم كانوا في السماء محفوظين بحفظ رب العالمين، ثم تركوا الإيمان سواء كان هذا الإيمان فطري -كان مفروضًا أن يستفيدوا من فطرهم- أو يكونون في بلد الإيمان، والإيمان معروض عليهم، والإيمان أمام عينيهم لكن هم لا يعتنون به أبدًا. فمن ترك الإيمان أصبح بمنزلة الساقط من السماء، المتعرض للآفات. ويمكن أن يكون من القوم المتذبذبين فتمزعه الطيور، تقطع أعضاءه. إذا ترك الإنسان الاعتصام بالله، وبالإيمان، تتخطفه الشياطين من كل جانب، ويمزقونه، ويذهبون عليه بدينه، ومن ثم بدنياه. ولذلك من الأشياء العجيبة أن مثل هؤلاء حين يتركون أنفسهم لهذه الأفكار، وتعيث بهم، كثير منهم يعرض نفسه للانتحار، كثير منهم يقتل نفسه، فيصدق عليه المثل أنه كالمتردي من العلو، الذي لا بد أن يهلك، فنعوذ بالله من الهلاك، ونعوذ بالله من أن تتخطفنا الأهواء ومن أن تطوح بنا الشياطين فتذهبنا، بعيدًا عن باب الله.

هذا كان المثل الأول في سورة الحج، يبقى معنا غدًا، المثل الثاني من هذه السورة المباركة، ونمر على زيادة معانٍ متصلة بنفس السورة، وبأخبارها وبأخبار

عن الله -عزَّ وجلَّ- ثم يتبين معنا المثل الثاني، والحمد لله رب العلمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.